خطبة صلاة الجمعة 7/ 12/ 2018 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(صلة اللغويين برسول الله صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا ، وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ [الأحزاب 45].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق –يعني صخّاب–، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صُمّا، وقلوبا غُلْفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة:

بمناسبة دخول شهر ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاءت سلسلة الخطب بعنوان: صلة علمائنا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لنزداد له محبةً ولنجتهد به اقتداءً ولنكثر عليه صلاةً، صلوات ربي وسلامه عليه.

تحدثت الخطب الماضية عن صلة الصحابة الكرام برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلة المحدثين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلة الفقهاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلة المزَكِّين برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعنوان خطبة اليوم: **صلة اللغويين برسول الله صلى الله عليه وسلم**

قال الثعالبي في كتابه الماتع فقه اللغة: (من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العُجم والعرب، ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها وثابر عليها وصرف همَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خيرُ الرسل، والإسلامَ خيرُ الملل، والعربَ خيرُ الأمم، والعربيةَ خيرُ اللغات والألسنة).

أيها الإخوة:

أجمع اللغويون على الاحتجاج بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي المروي بلفظه صلى الله عليه وسلم وبكلام العرب الفصحاء الذين لم تدخل عليهم العجمة.

لكنهم اختلفوا في الحديث النبوي المروي بالمعنى؛ فاحتج به الأكثرون ومنع الاحتجاج الأقلون؛ يقول الإمام اللغوي أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي(ت1170هـ): (ما رأيت أحدا من الأشياخ المحققين إلا وهو يستدل بالأحاديث على القواعد النحوية والألفاظ اللغوية ويستنبطون من الأحاديث النبوية الأحكامَ النحوية والصرفية واللغوية وغير ذلك من العلوم اللسانية كما يستخرجون منها الأحكام الشرعية).

قال: (وقد ذهب إلى الاحتجاج به والاستدلالِ بألفاظه وتراكيبِه جمعٌ من الأئمة منهم شيخا الصناعة وإماماها الجمالان ابنُ مالك وابنُ هشام والجوهري وصاحب البديع والحريري وابن سيده وابن فارس وابن خُروف وابن جني وأبو محمد عبد الله بن بري والسُهيلي وغيرهم ممن يطول ذكره).

ثم قال عن هذا المذهب: (وهو الذي ينبغي التعويل عليه والمصير إليه، إذ المتكلم به صلى الله عليه وسلم، أفصحُ الخلق على الإطلاق، وأبلغ من أعجزت بلاغته الفصحاء على جهة العموم والاستغراق،

فالاحتجاج بكلامه صلى الله عليه وسلم الذي هو أفصح العبارات وأبلغ الكلام، مع تأييده بأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من الملك العلّام، أولى وأجدر من الاحتجاج بكلام الأعراب الأجلاف، بل لا ينبغي أن يُلتفت في هذا المقام لمقالِ من حادَ عن الوِفاق إلى إجراء الخلاف)

وقد وصف الجاحظ كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيان والتبيين بقوله: (هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفِه، وكَثُرَ عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف. استعمَل المبسوط في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغِب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطِق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق، وهذا كلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام؛ هو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبُذ الخطب الطوال بالكَلِم القصار، ولا يلتمسُ إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلبُ الفَلَجَ إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابَة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يَعْجَل ولا يُسْهِبُ ولا يَحصَرُ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم.)

قال مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: (ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له صلى الله عليه وسلم إلا توفيقاً من الله وتوقيفاً، إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم).

ولأجل هذا – أيها الإخوة- تعلق الكثير من أهل اللغة برسول الله صلى الله عليه وسلم محبة وشوقا، وتمسكا بسنته وطاعةً لأمره، وهيبةً له وأدباً معه صلى الله عليه وسلم.

فأما محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم:

فقد جاء في طبقات النحويين واللغويين عند ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلَّامٍ الخُزاعيّ (ت224هـ)، وهو من النحويين والعلماء بالكتاب والسنة، وممَّن جمع صنوفًا من العلم: (قدم أبو عبيد مكة حاجًّا، فلما انقضى حجُّه وأراد الانصراف؛ اكترى إلى العراق ليخرجَ صبيحةَ الغدِ.

قال أبو عبيد: فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في رؤيايَ وهو جالسٌ وعلى رأسه قومٌ يحجبونه، والناسُ يدخلون عليه، ويسلِّمون عليه، ويصافحونه، قال: فكلما دنوتُ أدخل مع الناس مُنِعتُ، فقلتُ لهم: لِمَ لا تُخلُّوا بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا لي: لا والله؛ لا تدخل عليه، ولا تُسلِّم

عليه وأنت غدًا خارجٌ إلى العراقِ. قال: فقلتُ لهم: إنِّي لا أخرجُ إذًا. فأخذوا عهدي، ثمَّ خلُّوا بيني وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلتُ وسلمتُ وصافحتُ.

قال: فلما أصبح أبو عبيد، فَاسَخَ كَرِيَّه، وسكن مكة حتى توفي بها، ودفن فيها).

وجاء في معجم الأدباء في ترجمة إسماعيل بن محمد، أبو محمد النيسابوري: (أنفق ماله على الأدب فتقدّم فيه، وبرع في علم اللغة والنحو والعروض، لما أزمع الحج والزيارة أنشد يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أتيتك راجلا وودِدْت أني ... ملكت سواد عيني أمتطيه

وما لي لا أسير على المآقي ... إلى قبرٍ رسولُ الله فيه

وله أيضا:

أيا خير مبعوث إلى خير أمة ... نصحت وبلّغت الرسالة والوحيا

فلو كان في الإمكان سعي بمقلتي ... إليك رسول الله أفنيتها سعيا

لقد أحب أهل اللغة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلقوا به.

وأما تمسكهم بسنته صلى الله عليه وسلم وطاعتهم لأمره:

فقد ذكروا -كما في معجم الأدباء- عن الحافظ المقرىء اللغوي الحسن بن أحمد العطار، أبي العلاء الهمذاني: (ت 569 هـ)، كان يقول: لو أن أحدا أتاني بحديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يبلغني لملأت فاه ذهبا.!

وكان رحمه الله شديد التمسك بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فكان لا يسمع باطلا أو يرى منكرا إلّا غضِب لله ولم يصبر على ذلك ولم يداهن؛ دخل عليه أبو الحسين العبادي يوماً زائرا، وجلس عنده زمانا، وجعل يكلم الشيخ إلى أن جرى في كلامه: وعزمت غير مرة على الإتيان إلى الخدمة لكني منعني كون الكوكب الفلانيّ في البرج الفلاني، فزجره الشيخ وقال: السنّة أولى أن تتّبع، فقام العباديّ خجِلا وخرج.

وجاء في تاريخ بغداد حديثٌ عن الأصمعي راويةِ العرب وإمامِ اللغة والشعر (ت 216 هـ): (قَالَ أَبو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيّ: أَهْدَيْتُ إِلَى الأَصْمَعِيِّ قَدَحًا، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَيَقُولُ: مَا أَحْسَنَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ فِيهِ عِرْقًا مِنَ الْفِضَّةِ، فَرَدَّهُ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "نَهَى أَنْ يُشْرَبَ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ".

فقد تمسك أهل اللغة بالسنة وأطاعوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما أدبهم مع النبي صلى الله عليه وسلم:

فقد قال عمر بن محمد: دخلنا على الإمام الحافظ أبي العلاء الهمذاني الحسن بن أحمد العطار وهو يكتب، فقعدنا عنده ساعة، فوضع ما في يده وقام ليتوضأ، فنظرنا فيما كتب فإذا هو قد بيّض كلّ موضع فيه اسم من أسماء الله تعالى أو ذكرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فتعجبنا من ذلك، فلما رجع سألناه عن ذلك فقال: إني لما كنت أكتبُ ذلك شككت في الوضوء فما جوّزت أن أكتب بيدي أسماء الله تعالى أو ذِكْرَ الرسول صلى الله عليه وسلّم وأنا شاكّ في الوضوء.!

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِنه لَيُغانُ على قلبي حتى أَستغفر الله في اليوم مائة مرة»** [مسلم].

قال القاضي البيضاوي في شرح المصابيح: الغين لغة في الغيم، وغان على قلبي كذا أي غطّاه.

قال أبو عبيدة قد بلغنا عن الأصمعي أنه سئل عن هذا الحديث فقال للسائل: عن قلب مَن يُروى هذا؟ فقال: عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: لو كان عن غير النبي صلى الله عليه لكنت أفسره لك.!

قال القاضي: (ولله در الأصمعي في انتهاجه منهج الأدب، ونقول: لما كان قلب النبي صلى الله عليه أتمَّ القلوب صفاءً وأكثرَها ضياءً، وكان مبيناً مع ذلك لشرائع الملة... لم يكن له بدٌّ من النزول إلى الرُّخَص والالتفاتِ إلى حظوظ النفس... فكأنه إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرعت كدورةٌ ما إلى القلب لكمال رقته وفرطِ نورانيته... وكان صلى الله عليه إذا أحسّ بشيءٍ من ذلك عدّه على النفس ذنبا فاستغفر منه).

وكان الأصمعي – كما في وفيات الأعيان– شديد الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة، فإذا سئل عن شيء منهما يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو.

ويقول: (إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن. فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه). (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية)

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من صلة اللغويين بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعلقهم به:

يحبونه ويشتاقون له، ويتمسكون بسنته ويطيعون أمره، ويتأدبون معه ويجلّونه.

فإذا كان هذا حال أؤلئك الأعلام فما عسانا نفعل لنزداد قربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلقا به؟

أقترح عليك أربعة أمور:

1- اقرأ شيئاً من حديثه صلى الله عليه وسلم وسيرته واحفظ شيئاً من الحديث.

2- الزم ورداً يومياً بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، واحضر مجلساً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مرة كل أسبوع.

3- طبِّق ما استطعت من سنته.

4- اصحب من أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين